

العربية ليست لغة الخلود القرآن كدستور الدين الإنسانية : الإسلام

بقلم أحمد محمد جمال

استاذ الثقافة الاسلامية بجامعة
الملك عبد العزيز بجدة

والعرب منذ اواخر العصر الجاهلى مهتمون بلغتهم معتزون بتراثها الادبى وقد قيل (الشعر ديوان العرب) ولكن اهتمامهم واعتزازهم بها ازداد مع ظهور الاسلام لان الله عز وجل اختارها لغة لدينه قرآنا وسنة وعبادة وتشريعا وسياتى تفصيل ذلك فيما بعد ثم تضاعف الاهتمام والاعتزاز باللغة العربية وحفظ التراث اللغوى وتنقيته من الدخيل الاعجمى اثناء الفتوحات الاسلامية وبعدها وعلى الرغم من ان الاستعمار العربى كان يعمل لهدم اللغة العربية بحسبانها لسان الدين الاسلامى الذى ما يزال يحاول هدمه بالدعوة الى استخدام اللهجات العامية لغة للتأليف والكتابة كما فعل اللورد (دفرين) السياسى البريطانى حين طالب بتدوين العلوم باللغة العامية المصرية وكما حاول المستعمرون الفرنسيون فى الجزائر الا ان هذه الدعوات والمحاولات الاستعمارية قد باءت بالخيبة والفشل .

وليس ادل على خطأ هذه الدعوات والمحاولات وخداها وافترائها - وان صدرت احيانا من بعض الكتاب العرب من راي الكاتب الانجليزى (هكسلى) الذى قال ان كتابة العلوم والاداب باللغة العامية يضعف المواهب العلمية ويقضى على ملكة الانشاء الفصحى لذلك ينبغى ان نرقى بمقول العامة الى فهم

ان الواقع التاريخى للغة العربية وللدين الاسلامى - خلال اربعة عشر قرنا - يثبت حقيقة التلازم والارتباط بين انتشار كل منهما وازدهاره بمساعدة الاخر .

هذا الى جانب حقيقة اخرى واضحة وثابتة وهى ان فى كل من الدين الاسلامى واللغة العربية من القوة الذاتية والاستعداد الاصيل ما يكفل له الغلبة والانتصار .

فاللغة العربية - ذاتها - لغة حية ادت رسالتها فى الحياة خير اداء وعبرت فى عصورها الاولى عن حاجات المجتمعات التى تتخذها لغة لها تعبير بها عن مطالبها وآلامها وعلومها وآدابها وفنونها وما زالت مستعدة للتعبير عن الحياة وما جد فيها ومستعدة ان تتسع اكثر من ذى قبل لكل جديد مبتكر ومختصر حديث كما يقول الاستاذ احمد عبد الفغور عطار فى كتابه (الفصحى والعامية) .

واللغة العربية - ايضا - من اغنى لغات البشر ثروة لفظية تستوعب حاجات الامة الحسية والمعنوية كما يقول الاستاذ مصطفى السقا فى مقدمة كتاب (المعجم العربى) للدكتور حسين نصار .

لغة العلم والادب العالية لا ان تنزل بالعلماء والادباء الى مستوى العامة ومنتقل الآن الى الحديث عن اثر الاسلام فى انتشار اللغة العربية وسنرى اقوال بعض ائمة اللغة والادب مختصرة عن حقيقة التلازم القوي بين انتشار الاسلام بالعربية وانتشار العربية بالاسلام .

ونبدأ بالازهرى الامام اللغوى المشهور فهو يقول فى مقدمة كتابه (تهذيب اللغة) : « الحمد لله على ما اسبغ علينا من نعمه الظاهرة والباطنة وهدانا الى تدبر تنزيله والتفكر فى آياته والايمان بمحكمه ومتشابهه والبحث عن معانيه والفحص عن اللفظة العربية التى نزل بها الكتاب والاهتداء بما شرع فيه ودعا الخلق اليه ووضح الصراط المستقيم به وهداهم الى ما فضلنا به على كثير من اهل هذا العصر فى معرفة لغات العرب التى نزل بها القرآن ووردت سنة المصطفى النبي المرتضى عليه السلام . »

ثم يذكر الازهرى من اسباب قيامه بتأليف كتابه النصيحة الواجبة على اهل العلم لجماعة المسلمين كما جاء بها التوجيه النبوى (الدين النصيحة) اى ان دينه حمله على ان يضع كتابه فى اللغة العربية لافادة الناس ما يحتاجون اليه والدفاع عن لغة العرب التى جاء بها القرآن وجاءت بها السنن والآثار .

ويقول الاستاذ العقاد رحمه الله فى مقدمة كتاب (الصحاح) للاستاذ العطار (ولقد قيل كثيرا ان اللغة العربية بقيت لانها لغة القرآن وهو قول صحيح لا ريب فيه ولكن القرآن الكريم انما ابقى اللغة لان الاسلام دين الانسانية قاطبة وليس بالدين المقصور على شعب او قبيل وقد ماتت العبرية وهى لغة دينية او لغة كتاب يدين به قومه ولم تمت العبرية الا لانها فقدت المرونة التى تجعلها لغة انسانية وتخرجها من حظيرة العصبية الضيقة بحيث وضعها ابناءها منذ قرون .

ثم يضيف الاستاذ العقاد (ان هذه الفضيلة الانسانية التى لا تفرق بين العربى والاعجمى ولا بين القرشى والحشى لى التى انهضت لخدمة اللغة اناسا من الاعاجم غاروا عليها من حيف الاعجمية - اى انهم غاروا عليها من لغة امهاتهم وآبائهم لانها لغتهم على المساواة بينهم وبين جميع المؤمنين بالقرآن الكريم كتاب الاسلام .

وستبقى اللغة العربية ما دام لها انصار يريدون لها البقاء ولم ينقطع انصارها فى عصرنا الحاضر بل نراهم بحمد الله يزدادون ويتعاونون ويتلاقى ابناء البلاد المختلفة على خدمتها ودعمها لانهم مختلفون بمواقع البلاد متفقون بمقاصد الضمائر والالسننة والانكسار .

ونبدأ بالازهرى الامام اللغوى المشهور فهو يقول فى مقدمة كتابه (تهذيب اللغة) : « الحمد لله على ما اسبغ علينا من نعمه الظاهرة والباطنة وهدانا الى تدبر تنزيله والتفكر فى آياته والايمان بمحكمه ومتشابهه والبحث عن معانيه والفحص عن اللفظة العربية التى نزل بها الكتاب والاهتداء بما شرع فيه ودعا الخلق اليه ووضح الصراط المستقيم به وهداهم الى ما فضلنا به على كثير من اهل هذا العصر فى معرفة لغات العرب التى نزل بها القرآن ووردت سنة المصطفى النبي المرتضى عليه السلام . »

هذا النص من مقدمة (التهذيب) لاجد ائمة اللغة الاعلام كاف لان نبين الباعث الاساسى على الاهتمام باللغة العربية وتدوينها وتصحيحها الا وهو (الاسلام) قرآنا وسنة وعبادة وتشريعا .

والقرآن نفسه قبل كلام الازهرى وامثاله من علماء اللغة يؤكد حقيقة هذا الباعث الاساسى للاهتمام باللغة العربية والاعتزاز بترائنها العلمى والادبى .

فقد من الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى العرب الذين بعث فيهم ومنهم بقوله عز وجل (انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقوله (لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم افلا تعقلون) وقوله (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) وقوله سبحانه (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) الخ ..

فتزول القرآن الكريم بالعربية - كما يتضح من آيات القرآن نفسه - دليل اهميتها وفضليتها وبعث نهضتها وصاحب الفضل الاكبر والاثر الاظهر فى نشرها وخلودها وهى - ايضا - لانها اغنى اللغات بيانا واقواها برهانها كانت ولا تزال عاملا مساعدا لنشر الاسلام والاقبال عليه ويكفى دليلا على ذلك اختيار الله لها لسانا لدينه العام والاخير وهو الاسلام ومنتهى بذلك على العرب خاصة والمسلمين عامة .

وقد روي عن الامام الشافعى رضى الله عنه انه قال (لسان العرب اوسع الالسننة مذهبا واكثرها

والحديث والفقه والاصول والنحو والرياضة والمنطق
والكلام (والفلسفة الح. .)

تكتفى بهذه الآراء والنظريات لائمة اللغة والادب
قدما وحديثا كحجة على مدى التلازم والارتباط بين
انتشار الاسلام بالعربية وانتشار العربية بالاسلام اذ
هى لسانه المبين وهو روحها النفاذ .

اما الاسئلة الجانبية الملحقة بالاستفتاء فنحيب
عنها بايجاز .

1 - أن الوعي الاسلامى والوازع الدينى لا
يقويان او يضعفان تبعا لضعف لغة الضاد او قوتها بل
يقويان او يضعفان بعوامل اجتماعية وثقافية وتربوية
ايجابا وسلبا .

2 - الملاحظ ان للفكر الاسلامى عن طريق لغة
القرآن تأثيرا كبيرا فى السنة غير العرب من المسلمين
فهم يحاولون فى اعتزاز ان يقلدوا العرب فى لغتهم
وافكارهم وسلوكهم ويرون فى العرب ولسانهم قدوة
حسنة لان القرآن نزل عليهم وبلغتهم .

3 - اللغة العربية يجب ان تحتل المكانة الاولى فى
كل بلد اسلامى بصفة عامة وفى كافة البلاد العربية
بصفة خاصة وفى بلدى منزل القرآن ومولد الرسول
ومهبط الوحي بصفة اخص .

ان العقاد يعنى بما قدم ان انسانية الاسلام
وعالية تشريعه الحكيم هى التى ساعدت على انتشار
اللغة العربية التى هى لغة كتابه (القرآن) الذى وحد
فى المؤمنين به (مقاصد) الضمائر والالسنه والافكار
على الرغم من اختلافهم فى مواقع البلاد. ويقول
الدكتور حسين نصار فى كتابه (المعجم العربي) : «لم
تنهر اللغة العربية بانهار الدولة الاموية وذلك بفضل
القرآن الذى احاط العربية بهالة من القداسة
والجلال غمرت كل مسلم مهما كان جنسه ومهما كانت
لفته فاستمرت حية تتوارثها السنة جيل بعد جيل
وان السبب المباشر الذى اظهر الدراسات اللغوية
هو ارتباطها بالدراسات الدينية واتحادها فى النشأة
فقد انزل القرآن كتاب العربية الاعظم على الرسول
العربى الكريم ليدعو قومه الى سبيل الرشاد فكان
بلغتهم وعلى اساليب كلامهم .

(وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ثم
الصحابة من بعده المرجع فى تفسير القرآن ثم جاءت
الحركة العلمية الاولى عند المسلمين التى شملت فى
مدة وجيزة جميع العلوم التى عرفها العالم القديم فما
اتصل بالقرآن كان اولها ظهورا حيث ظهرت كتب (غريب
القرآن) ثم كتب (غريب الحديث) وكان آخر الظواهر
التي امتدت الدراسات اللغوية بالروافد ظاهرة التدوين
العلمى حيث وضعت معظم العلوم العربية فى اواخر
العصر الاموى ووائل العهد العباسى كعلوم القرآن

— ارى انه تبعا لانتشار الاسلام ينتشر القراءان وتنتشر اللغة العربية التي انزل بها نظرا لكثرة التالين
او الحافظين للقراءان بين المسلمين .

— هناك علاقة متينة حتمية بين الاسلام والعربية ولكن انتشاره لا يتوقف على العربية لان عوامل
الانتشار والتوسع كامنة فى مبادئه وقواعده .

— تاثر الفكر الاسلامى الى حد كبير بلغة القراءان العربية وتقدم تبعا لتقدمها ، وقد ظهر اثر ذلك حتى
لدى الجاليات الاسلامية الموجودة خارج المنطقة العربية والوطن الاسلامى .

— اثرت اللهجات الاقليمية فى العربية فى بعض الاقطار غير العربية كالفارسية والتبطينة والهندية
والاندونيسية والماليزية وغيرها .

— كل المسلمين وفى ضمنهم الجزيرة العربية موقنون بوجوب الرفع من مستوى العربية واحاطتها
بهالة من الاجلال والتقدير وجعلها تفوق غيرها من اللغات اعتبارا لماضيها المجيد وتقديرا لما اسدته
للحضارة العالمية كلها من خدمات جلى .

الاستاذ سعيد مندوس
المملكة العربية السعودية